

إلى رُوحى أبى وأمى :

عبد الغنى مرسى شامة

ولبيبة حامد ندا

﴿ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ ٢٤ ﴿

obeikandi.com



﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا

فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (٨٢)

بِسْمِ اللَّهِ
صَدَقَ
العظيمة

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الوحي الإلهي في مصدره حق، لأنه صادر عن الحق، ونزل به روح القدس بالحق، والحق ضد الباطل. والحقائق حق، والأباطيل والأساطير وهم وخرافة، ومن غايات النص الإلهي ما ورد: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [١٨]، إلا أن العقول لا تستطيع أن تتحمل هذا الحق، لأنه ثقيل على النفس في كثير من الأحيان: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [٥] [المزمل: ٥]، فإذا بما تعرض عنه، أو تتخفف منه، أو تمزجه بغيره، أو تنشئ حوله أساطير تجعلها معلقة بهذا الحق لتحقيق إشباعاً للنفس.

وكلما جرى على النص الإلهي مثل هذا، كلما جاء الوحي بنص جديد خال من الباطل صادع للحق، فيجري عليه ويسرى ما جرى على النص السابق، بل العجب أن تصبح الأسطورة، ويصبح الخيال بمضى الزمن جزءاً مدوناً ضمن الحق الموحى به.

ومن أوضح الأمثلة على هذا، أن القارئ للكتاب المقدس، بعهديه: القدم والجديد، يدرك بقية من حق، كسكنى آدم الجنة، وخلق حواء، فضلاً عن نبوة نوح، والطوفان، وأسماء بعض الرسل، بما لا يستطيع إنسان إنكاره، لأن مثله في القرآن الكريم، وبخاصة الوصايا العشر، ويرى في الوقت نفسه عجائب وغرائب تحدث عن الوسوسة، والحية، وإبليس، والمرأة وعقوبتها، وسفينة نوح،

والأصناف التي كانت فيها، ويلحق بهذا الكثير بحق الذات الإلهية، والأنبياء والرسل وغيرهم. وقد صار ذلك بمضى الزمن وحيأ إلهياً مزعوماً، بل صارت رؤيا يوحنا اللاهوتي جزءاً من العهد الجديد، فضلاً عن أعمال الرسل، ورسائل بولس، والسبع الكاثوليكية في ظل هذا الموروث الإلهي الموحى به إلى السابقين، والذي لم يرع أتباعه حقاً لهذا الوحي.

جاءت كلمة الله الخاتمة إلى البشرية جمعاء، موصوفة بصفات شتى، منها: " الحق "، والخلو من الأساطير، والخلو من الكهانة، والسلامة من التعارض، والقطع بأن كل كلمة فيه وحي إلهي، وأنها مراد إلهي، ليس للبشر فيها نصيب من حيث النزول.

وقد حُفِظَ النص بحفظ مُنَزَّلِهِ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، ولهذا خلت آياته من الأساطير، وقد رد القرآن الكريم على من زعم هذا، فقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أَكْتَتَبَهَا فِيهِ تَمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿٦﴾ [الفرقان: ٥-٦]

ولما كان الكثير من القصص متعلقاً بوقائع قد مضى عليها من الزمن ما لا يعلمه إلا الله، وكثير منها غيبي لا أثر يدل عليه، وورد بعضه في فكر أهل الكتاب وثقافتهم، فإن بعض علماء الإسلام، وبخاصة المفسرين، قد نقل الكثير بحق النص القرآني لتقوم الأسطورة بالفكر الإسلامي، لا بالنص القرآني.

ونظراً للضعف الفكري، وانحدار المستوى العقلي، وبدلاً من إجهاد العقل في الاستنباط من النص، أو فهمه كما ينبغي بما يتناسب مع الزمان والمكان والمعطيات، فإن كثيرين قد مالوا إلى التركيز على الأسطورة ذات الصلة بالنص، دون التأمل في النص ذاته.

وقد لعب الدعاة الدور الأكبر في نشر الأساطير، معلقين بها على النص القرآني، حتى نسي الناس الحقيقة وعاشوا الأسطورة، ندرك ذلك واضحاً في خطبة عيد النحر مثلاً، فبدلاً من الحديث عن التكافل الاجتماعي في المناسبات السارة: " زكاة الفطر "، " أضحية النحر "، وبدلاً من الحديث عن يسر القيم المستنبطة من حجة الوداع على المستوى الأسرى، والدولي، وبدلاً من الحديث عن يسر التشريع الإسلامي في الحج " افعل ولا حرج "، نرى كل الخطباء يتكلمون عن ذبح إسماعيل، وعن السكين، وعن حوار إسماعيل مع أبيه قبل الذبح، وعن حديث إبليس مع إبراهيم وإسماعيل، وعن الوصايا التي وصى بها إسماعيل أباه عندما يرجع إلى أمه، وعن الكبش وصفته وعمره ومصدره ومرعاه، وعن بقاء رأسه معلقة على الكعبة آلاف السنين..... إلخ

ومثل هذا ماورد بحق كثير من الغيبيات، بدءاً من آدم عليه السلام، وانتهاءً بعبسى عليه السلام، وهذه سمة العامة، وشأن العوام.

وإذا كانت الأسطورة تستهوي طائفة من الناس، فإنها في نفس الوقت تسبب صدمة عقلية لعقول الصفوة، فتحركها من سبات، وتبعثها من رقاد، وتدفعها إلى رفض هذا الموروث، وتنظر إليها في ضوء غايات القرآن ومقاصده، فتري في المنتج الفكري الأسطوري تردياً، وفي الدعوة إليه تخلفاً، وفي الاستنباط العقلي ضرورة، وفي التحرير الفكري مسئولية، وفي إمطة اللثام عن المقاصد الحققة للأفهام فرض عين.

هذه العقول الفذة تجهد أصحابها، وتجهد محبيها، وتجهد مبغضيها: فأما إجهادها لأصحابها، فلأن قدح الذهن ليس بالأمر الهين، أو السهل اللين، بل لا بد من شرارة البدء، ودوران الفكر، وإقلاق المضجع، ومراجعة النفس فترة حمل الفكرة، والتي تستغرق ساعات أحياناً، وأحياناً شهوراً وسنين

عددًا، حتى يكون المخاض، وهو في الفكر أشق منه في ولادة البشر. فالفكرة العامة في داخلها أفكار شتى، كلٌّ منها يولد تباعاً، أو على فترات متقاربة أو متباعدة، حتى إذا فرغ الإنسان من كتابة الفكرة، يشعر وكأنَّ حملاً ثقيلاً قد ألقي عن ظهره، وأن دينا قد أسقط عن كاهله. وتبقى المشكلة قائمة حول الترحيب بهذا المولود، أو التبرم منه والإعراض عنه، وهل يكون مصدر سعادة أو شقاء لصاحب العقل الذي أنتج هذا الفكر، فكم نعيم أناس بالهزل الذي سطره، وكم أذى وحورب أناس بالجد الذي أبدعوه !

وأما إجهاد المنتج العقل لمحببهم، فلأنه يتطلب منهم سرعة الركض، وتوسيع دائرة الفكر والمعرفة بمذاهب شتى، وأفكار متنوعة، حتى يمكن استيعاب المقروء، وتوفير القناعة على صلاحية البضاعة مع حسن العرض وجودة المنتج. وكلما اتسعت دائرة ثقافة المحبين وأهل الاعتدال، كلما وجدوا وجهاً لهذا أو ذاك المقال، وإنما هي لمسة جمال أضيفت على هذه الأفكار، أو حبات عقد جُمعت ونُظمت، وجمعها تطلب جهداً، ونظمتها تطلب علماً وفناً، فكانت هذه الإبداعات كما قال الإمام البوصيري:

فالدر يزداد حسناً وهو منتظم * وليس ينقص قدراً غير منتظم

وأما إجهاد الأفكار الجادة لمبغضيهما فمن جوانب شتى:

- الحقد والحسد على صاحب الإبداع.
- العجز عن استيعاب هذه المستجدات الفكرية.
- العجز عن إبطال هذه الأفكار لانعدام الدليل، وضعف الحجة.

ومن العجب أن أصحاب هذا التيار، إذا تعذر عليهم الاستيعاب، وسقطت منهم الحجة، لا يجدون سبيلاً يصفون به مثل هذه الإشراقات الفكرية إلا من تراثهم الثقافي، فيقولون عنها: تحريف، أضغاث أحلام. ويصفون صاحبها بأنه:

متفלת فكرى، أو متخلف عقلى، وما ذرّوا أن كل إناء بما فيه ينضح .
 إن هذا الكتاب - مفهوم الأسطورة فى القرآن الكريم - باعث للعقل، محرك
 للفكر، مُقَوِّمٌ للحجة، خارج عن التقليد والاتباع، مُؤدِّ إلى التجديد والإبداع،
 سائلاً الله لمؤلفه الحفظ والسلامة، ودوام العطاء، ولقارئه القدرة على الفهم
 الحسن.

والله ولى التوفيق

أ.د/ بكر زكى عوض

عميد كلية أصول الدين بالقاهرة

جامعة الأزهر

تلميذ المؤلف*

• أصر الأستاذ الدكتور بكر زكى عوض على إثبات هذه المعلومة، وهذه يدل على نبل خلقه ووفائه لأساتذته، وإزاء هذا الإصرار تركتها لتكون نبراساً للأجيال، حتى لا يضيع الوفاء لى زحمة الأناية ونكران الجميل الذى أصبح سمة هذا العصر.

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

اهتم الإنسان بدراسة التاريخ، لأنه يشبع رغبة داخلية عنده، تدفعه إلى سماع سيرة الناس وأخبارهم، ولأن قصص السابقين لون من ألوان الفكر البشري، مال إليه الإنسان، عندما تبين له أن معرفة الأحداث الماضية تساعد على استغلال حاضره، والتخطيط لمستقبله. كذلك في دراسة التاريخ عبرة، تستفيد منها المجتمعات، لتصحيح مسارها في جميع مجالات الحياة.

ولذا لم يخل مجتمع من المجتمعات البشرية من ممارسة هذا اللون من الثقافة، غير أن أسلوبه اختلف من مجتمع لآخر؛ ففي المجتمعات البدائية كان اللون السائد في هذا المجال قصص البطولة والشجاعة، صاغها الإنسان في أسلوب يغلب عليه الطابع الأسطوري، وفي القرون الوسطى تغلب الحديث عن الأسر الحاكمة على غيره من أنواع أنشطة الإنسان في مختلف جوانب الحياة.

ولما كان الدين هو محور الحياة في العصور القديمة، فقد تغلب الطابع الأسطوري على كل ماورد في الكتب المقدسة؛ إذ لم تخرج النصوص الدينية - في معظمها - عن سرد لتاريخ السابقين من أنبياء ودعاة، فجاءت تعاليم الدين ومبادئه مبثوثة في طيات السرد التاريخي، ومن أشهر الأدلة على ذلك الديوانان المنسوبان إلى (هوميروس Homere)، أعنى الإلياذة والأوديسا، وهما سلسلتان من القصص الشعري عند قدماء اليونان، إذ نقرأ فيهما مغامرات اليونانيين في الأشعار، وقصص أبطالهم وشجاعتهم في الحروب، وتنافسهم في الغنائم

والأسلاب، وفي طيات هذا كله نقرأ أسماء آلهتهم وآلهة خصومهم، ووصف ما كان يقدم لهم من القربان والضحايا، وما يرفع لهم من توسلات المظلومين والمكروبين، كما ذُكر فيهما أيضاً المحاورات والمشاورات التي كانت تجري بين آلهة السماء، كما كان يتصوره اليونانيون آنذاك.

ولم تقتصر هذه الظاهرة على أديان قدماء اليونانيين، بل كان سمة كل الأديان في جميع بقاع الأرض، بل إن اليهودية والنصرانية لم يشدا عن هذه الظاهرة، فمن يقرأ الكتاب المقدس، يجد أنه لا يخرج عن كونه قصصاً للأنبياء السابقين، وجاءت التعاليم الدينية بين ثناياها، فبدت وكأن القصة هي المحور، ومبادئ الدين وتفاصيل العبادات ملحقة بها، فتعاليم الدين تستنبط من أحداث القصة.

غير أن القرآن الكريم اختلف عن هذا كله، فهو ليس كتاباً تاريخياً، أرخ فيه لحوادث ما سبق من الزمن، ولا سجلاً لأخبار من سبق من الأنبياء والصالحين، وإنما هو - في المقام الأول - كتاب هداية، يبين للناس فيه العقائد الصحيحة، ومبادئ السلوك الطيب، والنظم الاجتماعية التي ينبغي على المجتمعات تطبيقها، كي يستقيم أمرها، وينصلح حالها، وتعيش في أمن وأمان، وطمأنينة وسلام، يقول الله تعالى:

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ① الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ② وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ③ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ④ ﴾ [البقرة: ٢ - ٥]

ويقول: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِيَتَىٰ هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ① ﴾ [الإسراء: ٩]

ويقول: ﴿ وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ

الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا ﴿٨٢﴾ [الإسراء: ٨٢]

وغير ذلك من الآيات التي تبين: أن القرآن الكريم كتاب هداية، وعلاج للأمراض الاجتماعية، وليس كتاباً تاريخياً، فإذا جاء فيه حديث عن الأولين، كان تناوله لأخبارهم بعيداً عن السرد التاريخي، إذ يذكر جانب العظة فقط، ضارباً الصفح عن الأحداث التي لا تدخل في هذا الجانب، ولا تؤدي إلى الغرض الذي من أجله سبق الحدث، ألا وهو العبرة والعظة، يقول الله تعالى:

﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَئِن تَصَدَّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهَدَى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١]

ولهذا لا نجد قصة كاملة - من ألفها إلى يائها - في القرآن الكريم، بل نجد الجانب الذي يتطلبه المقام فقط، ومن هنا نجد الحديث عن كل نبي في أكثر من موضع، لأن ما يذكر في هذا النص غير الذي يذكر في نص آخر، لاختلاف المقام الذي يتطلب نوعاً معيناً من الاستشهاد بتاريخ الأنبياء السابقين، فإذا أردنا أن نتحدث عن الأنبياء الذين جاء ذكرهم في القرآن الكريم، فإن الأمر يتطلب جمع هذه الأخبار المتناثرة عن كل نبي، وترتيبها لينسج منها عقد تاريخي لهؤلاء الأنبياء، وحتى لو حدث هذا، فإن ما ينتج عن هذا العمل لن يكون قصة كاملة عن تاريخ هؤلاء الأنبياء، بل صورة خاصة تعرض للجوانب التي تتعلق باصطفاء الله لهم، ليبلغوا رسالته لأقوامهم، ولما حدث بينهم وبين أقوامهم من مناقشات حول ما جاءوا به من عند الله، لأن هذا هو الجانب الذي ركز عليه القرآن الكريم، ليضرب الأمثال للناس لعلهم يتفكرون فيما يبلغهم به محمد ﷺ من وجوب الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، ليدركوا أن طاعة الله تقودهم إلى الصلاح في الدنيا، والفلاح في الآخرة، كما حدث مع

من سبقهم ممن أطاعوا رسل الله، فامتثلوا لما أمرهم به، عقيدة، وعبادة، وسلوكاً، وأخلاقاً.

فالقصة ليست تاريخياً يعبر عن حوادث وقعت، وإنما هي من قبيل ضرب الأمثال للعتة والاعتبار. ولا ينفى هذا أنه ورد الحكم عليها بأنها القصص الحق، فوصفها بالحق لأنها تشرح الحق وتقرره، لا لأنها ذات حقيقة تاريخية ثابتة، وليس أدل على هذا المعنى من قصة أصحاب الكهف، تلك القصة التي ورد بشأنها قوله تعالى: ﴿ تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۗ ﴾ [الكهف: ١٣]، فقد قال بعض المفسرين القدامى: إن القرآن الكريم لم يذكر في هذه القصة الحقيقة التاريخية، وإنما ذكر ما كان يعرفه اليهود وأهل الكتاب عن عدد الفتية وعدد السنين؛ إذ " يذكر الدارسون للقرآن والشارحون لأسباب النزول أن قصة أصحاب الكهف إنما نزلت عن إجابة عن أسئلة توجه بها المشركون من أهل مكة بإيعاز من اليهود إلى النبي ﷺ ليعرفوا: أمن الأنبياء هو أم من المتنبئين؟ ويذكر الدارسون والشارحون أن المشركين حينما رجعوا من المدينة، أو رجعوا من عند اليهود، إنما رجعوا ومعهم المقياس الذي يقيّمون به صدق نبوة النبي، وصحة رسالته، ولم يكن هذا المقياس إلا لإجابة عن الأسئلة.

هنا نستطيع أن نسأل هذا السؤال: ما الإجابة التي يتوقع المتوقع أن يتزل بها الوحي من السماء ليثبت نبوة محمد وصدق رسالته؟ أهي الحقيقة التاريخية عن أمر أصحاب الكهف أم هي الإجابة التي ذكرها اليهود من أهل المدينة للمشركين من أهل مكة وجعلوها المقياس الذي يقاس به أمر النبي ﷺ؟

أعتقد أنك قد فطنت أن الإجابة اثنائية هي المطلوبة لأنها وحدها المقياس الذي وضعه اليهود في يد المشركين، ولأها التي تثبت حقاً أن الوحي يتزل من السماء، لأن معرفة ما قاله اليهود للمشركين قد تكون أشق وأعسر من معرفة

الحقيقة التاريخية من أمر أصحاب أهل الكهف، لأن المعرفة الأولى معرفة الخبايا والأسرار، والمعرفة الثانية معرفة الوقائع البشرية التي يسجلها التاريخ والتي يتناولها الرواة والأفراد.

هذا الذي نقول به هو الذي يتضح تماماً من فن بناء القصة في القرآن. لماذا ردّد القرآن الكريم عدد الفتية من أصحاب الكهف بين الثلاثة الرابعهم كلبهم، والخمسة السادسهم كلبهم، والسبعة الثامنهم كلبهم؟ لماذا ردّد ولم يذكر العدد الحقيقي لكل هؤلاء؟

ولماذا لم يذكر القرآن الكريم العدد الحقيقي للسنين؟ لماذا قال: ﴿وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥]، ثم أعقبه بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا﴾ [الكهف: ٢٦] لماذا كل هذا؟

لا نستطيع أن نتصور أن هناك من يدعى أن المولى ﷺ كان يجهل العدد الحقيقي من أمر هؤلاء الفتية، فالله يعلم السر وأخفى، والله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وحاشا للمولى ﷺ ألا يتعلق بعلمه أمر ما في الأرض أو في السماء.

إن التردد في العدد، وإن التجهيل في أمر السنين، لم يكن إلا لحكمة يريد بها المولى، وليست الحكمة فيما نرى إلا أن يتزل القرآن بما قالته اليهود للمشركين، ومن هنا كانت أيضاً هذه النصائح التي يذكرها القرآن الكريم في القصة. لقد كانت إجابات اليهود غير موحّدة، ومن هنا كان ما ترى في القصة من تجهيل وترديد. فن بناء القصة في القرآن الكريم يشعر بما نذهب إليه من أن صفة الحق في هذا الموطن لم تطلق على النبا من حيث هو حق في ذاته، وإنما أطلقت

عليه من حيث هو شارح للحق ومبين له. ^١

وهذا يقودنا إلى ما ضُرب في القرآن الكريم من أمثال، هل تعبر هذه الأمثال عن حقيقة لها وجود أم أنها تحمل في طياتها معانٍ سامية، ومبادئ عليا، يجب على المؤمنين الالتزام بها، حتى تسلم الأمة، أفراداً، وجماعات؟ ولما كانت هذه المعاني لا يدركها إلا المفكرون والفلاسفة، فقد صاغها الله بأسلوب يفهم من ظاهره عامة الناس صورة أشبه بالأسطورة منها بالحقيقة، وهذا أمر ضروري وعنصر أساسي في كل الأديان، كي لا ينصرف معظم شرائح المجتمع عن الدين لأنهم لم يفهموا نصوصه المقدسة، فاعامة ينسجون الأساطير حول هذه النصوص، من أمثال وقصص، والمفكرون يستنبطون منها القيم العليا، التي تقود المجتمع إلى الرقي والتقدم، وهذا ما انفردت به قصص وأمثال القرآن الكريم عن الكتب المقدسة السابقة؛ إذ أنها في الأديان الأخرى لا تحمل إلا الجانب الأسطوري، وصدق الله ﷻ إذ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة: ٢٦]

وعليه فسوف نعرض في هذا الكتاب عدة نماذج من قصص القرآن الكريم وأمثاله - بالإضافة إلى بعض المصطلحات والأعلام -، التي نسج العامة ومتوسطو الثقافة حولها أساطير لا يقبلها العقل، ولا يستسيغها العصر، فبين ما فيها من معانٍ سامية، وقيم عليا تقود المجتمعات الإنسانية إلى ما فيه صلاحها وفلاحها.

لكن، لماذا جاءت القصص والأمثال في القرآن الكريم حاملة المعنيين، الأسطوري - إن صح هذا التعبير - والعقلي؟

لأن المستوى الثقافي في أي مجتمع إنساني متدرج، من أبسطه إلى أعلاه، ومن المشاهد أن غالبية أفراد المجتمع تميل إلى المحسوس، فلو جاء النص القرآني يخاطب العقل فقط، لانصرف عنه معظم الناس، فكان لابد أن يراعى هذا الجانب كي يجذب إليه هذه الجموع، ثم يضمه المعاني السامية التي يستسيغها المفكرون والفلاسفة. فأسلوب القرآن الكريم يفهمه البدائي في كهفه وبيدائه ومغاراته، كما يدرك أسراره العالم في حلقاته العلمية ومدرجاته الدراسية، أحمرهم، وأسودهم، وأبيضهم، سواء كان في مجاهل الكرة الأرضية، أو في بروجها وناطحات سحابها، فكلام الله مائدة عامرة لكل الأفهام الإنسانية.

يحمل القرآن الكريم أسراراً عدة، وقضايا فكرية متنوعة، لازال العلماء يكشفون عن مكنونها، ويبيّنون ما فيه من قيم ومبادئ تناسب كل العصور، وتتواءم مع كل أنظمة الحياة الإنسانية، ولن ينضب معينه عبر القرون والأزمان، فسوف يكشف اللاحقون من العلماء ما خفى عنا، كما نحاول أن نكشف ما خفى عن السابقين، ولن يتوقف هذا الفيض الرباني عن الظهور جيلاً بعد جيل، وعصراً وراء عصر، مادامت الأمم تفرز من بين أبنائها من يوفقه الله - بفضل جهودهم العلمية - إلى كشف المزيد من أسرار القرآن الكريم.

وسوف نحاول بقدر الإمكان إلقاء الضوء على الجانب الأسطوري لمفهوم النص عند العامة، مستندين إلى ماورد في هذا الصدد في التراث الإسلامي موجزاً في النص ومسهباً عند الاقتضاء في الهوامش، تجنباً للعبء على القارئ، وإعطاءً للفرصة لمن يريد الاطلاع على تفصيلات الأساطير في الهوامش، معتمدين في هذا كله على المصادر المعتمدة علمياً، ثم نبين الجانب العقلاني الذي

توصلنا إليه في النص، كى نثبت أن النص يحمل من الأسرار ما خفى عن السابقين، وما زال يحمل الكثير من الأسرار والمعاني التي لا نستطيع الوصول إليها، وربما تستطيع الأجيال القادمة كشف أسرارها، فهو كتر مليء بأسرار يكشف جيل تلو آخر ما تمكنه ثقافته من كشفها، ولن ينضب معينها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

والله أسأل أن يجعل هذا خالصاً لوجهه تعالى، لخدمة هذا الدين الخفيف.

محمد عبد الغنى شامة

تمهيد

ظهرت مصطلحات على الساحة الفكرية في المجتمع الإسلامي، لم تكن معروفة عبر تاريخ الفكر الإسلامي، فهي وليدة الحضارة الغربية، دفعت بها إلى الفكر الإنساني ظروف العلاقة بين الكنيسة والمجتمع، إذ تسلطت الكنيسة على الفكر الغربي، فلم تسمح بحرية التعبير، ولم تقبل أى نوع من أنواع الإبداع الفكرى إلا في إطار ما يخدم الكنيسة، أو يسجل تصورها الذى انخرس في مجال ما تمليه القساوسة، وما تصدره الكنيسة من قرارات تحمل الطابع الدينى الذى لايجوز لأحد معارضته أو الخروج عن إطاره.

وكان من الطبيعى إزاء هذا الحصار الفكرى أن يتمرد عليه أناس تميزوا عن غيرهم في القدرات الفكرية، والإمكانات الإبداعية، فخرجوا عن مسار الكنيسة، فثبتوا أفكاراً وتصورات لا تعرفها الكنيسة، وبالتالي لا تقرها، ولا تسمح بها، بل شنت عليهم حملة شعواء، وقادتهم إلى المحاكم ليكونوا عبرة لغيرهم حتى لا يفلت الزمام من أيدي قساوستها. ولكن بمرور الوقت أتيحت لهذا التيار فرصة الظهور شيئاً فشيئاً، وذلك بما اكتشفه في مجال البحث الطبيعى من قوى متعددة: قوة الجاذبية، وقوة البخار في الصناعة، وقوة الكهرباء... إلخ باعدت بينه وبين الكنيسة، أو بتعبير آخر: ظهر في المجتمع الأوروبى تنازع بين السلطتين: الدولة والكنيسة، أو بين الدنيوى والمقدس. تقوّى الجانب العلمى بهذه الاكتشافات حتى جرف أمامه سلطة الكنيسة وحصر مسائل الدين في المجالات الشخصية وداخل دور العبادة، أما الأمور الحياتية فتجردت من سلطة الدين، وانطلقت بعيدة عن مجال القداسة، فأصبح للدولة مجال، وللكنيسة مجال: تكون للدولة الشؤون السياسية والاقتصادية والتعليم والتشريع، ويكون

للكنييسة شئون الأسرة في مراسيم الزواج، وطقوس الوفاة، ونظام الرهبنة والإكليروس. وهو ما أطلقوا عليه مصطلح: " العلمانية " الذى كثر الحديث فى هذه الأيام عنها، بين مؤيد ومعارض، بينما لا يستطيع أكثر الناس تحديد ما يعنيه هذا المصطلح على وجه الدقة، ولهذا نقدم - إضافة إلى ما سبق - شرحاً مبسطاً لمعناه ومدلولاته:

" العلمانية " : تنسب على غير قياس إلى العالم أو العالمية " Secularism " :
هى نظام من المبادئ والتطبيقات يرفض كل صورة من صور الإيمان الدينى والعبادة الدينية... هى اعتقاد بأن الدين والشئون الإكليريكية (اللاهوتية والكنسية) والرهبنة لا ينبغى أن تدخلى فى أعمال الدولة، وبالأخص فى التعليم العام. والتحول إلى العلمانية هو التحول من الملكة الدينية إلى الملكة المدنية، أو من الاستعمال الدينى إلى الاستعمال المدنى.... هو التخلص من سلطة الرهبنة والعهد الرهبانى... هو التحول إلى الانتماء المدنى.^٢

" والعلمانى " Secular " : هو الشخص الذى يهتم بأمور العالم المادى، أى يرتزق من خلال عمل يؤديه فى أى شأن من شئون العالم المادى (الدنيا)، كالنجار، والطبيب، والقاضى، والفنان، والمعلم....إلخ
وهو عكس الشخص الكهنوتى الذى يهتم بأمور العالم الآخر "اللاهوت"، أى يكسب رزقه من خلال العمل فى هذا المجال مثل المشايخ والقساوسة والحاخامات وسائر رجال الدين، والعرافين والسحرة والمنجمون.....إلخ
بهذا المعنى البسيط يكون كل الناس علمانيين، سواء كانوا متدينين أو غير متدينين، فالطبيب شخص علمانى، ولكنه إذا قرر أن يتفرغ للعبادة أو

للدراسات الدينية، وأن يرتزق بشكل كامل من خلال الاهتمام بشئون العالم الآخر، فإنه يتحول إلى شخص كهنوتي، أى غير علماني.

من هنا نفهم أن لفظ العلمانية قد جاء من كلمة: عالم، وليس من كلمة: علم، ذلك أن رجال الدين كانوا يحكمون أمور العالم المادى وأمور العالم الآخر (الدين) بأحكام مشتقة من الكتب الدينية، فلما ثبت في الكثير من الأحيان خطأ ما تصدره الكنيسة من أحكام، مثل: القول بأن الأرض مسطحة، وأنها مركز العالم، وأن الشمس هي التي تدور حول الأرض... وغيرها، طالب الناس رجال الدين بالتوقف عن حكم العالم من خلال الكتب السماوية، وترك الناس يحكمون العالم المادى بقوانين هذا العالم التي بدأ العلم في اكتشافاتها في مختلف مجالات الحياة العلمية، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية. وكانت انطلاقة الفكر العلماني في بداية عصر النهضة والحضارة الحديثة، أى أن العلمانيين يقولون: دعونا نحكم العالم بقوانين العالم، ونحكم الدين بقوانين الدين، لأن الخلط بينهما يؤدي إلى التخلف والجمود.

فالدين مطلق، ثابت، لا يقبل القسمة، أما العالم فهو نسبي، متغير، تحكمه الحركة الدائمة. والخلط بين المطلق والنسبي يؤدي إلى إحدى حالتين: إما سيطرة المطلق على النسبي، مما يؤدي لجمود العقل وعدم التطور، أو تحطيم النسبي للمطلق إذا كان النسبي من القوة. بمكان، مثل انتشار الإلحاد بعد اكتشافات "كوبرنيكس وجاليليو، وكروستوفر كولمبوس" وغيرهم.

إذن فالعلمانية مجرد أداة لتنظيم المجتمع، ومنع الخلط بين المطلق والنسبي، أو بين أحكام الدين وأحكام العالم الدنيوى، وذلك لمصلحة كل من الدين والدنيا.

هذه الأداة إذا استخدمها نظام استبدادى معادٍ للحرية كالأنظمة الشيوعية

السابقة مثلاً، فإنه سينكر حرية العقيدة، كما سينكر سائر الحريات الفردية الأخرى، مما يؤدي لإضعاف العقائد الدينية، والتضييق على المؤسسات الدينية، وإذا استخدمها نظام ليبرالي يقدر الحريات الفردية: السياسية، والدينية، والاقتصادية، مثل: الأنظمة الليبرالية في أوروبا وأمريكا، فحينها تنتعش الحرية في كل مجالات الحياة، ويتمتع المواطنون بحرية التعبير، وحرية المشاركة السياسية، وحرية النشاط الاقتصادي، وحرية ممارسة العقيدة الدينية.

ويؤدي النظام العلماني خدمات جليلة للمؤسسات الدينية، فهو يعتقها من سيطرة المؤسسة السياسية، ويمنحها بحكم القانون الاستقلالية الكاملة في شؤونها الإدارية والمالية والدعوية، مما يعيد ثقة المؤمنين فيها لاستقلالها عن السلطة، ويؤدي لازدهار هذه المؤسسات، وازدياد قدرتها على الدعوة والتبشير.^٣

" الإنسان في ظل مبادئ الإسلام لا يرتفع إلى مستوى الألوهية والقداسة في التقدير، كما لا يتزل إلى مستوى الحيوان في السلوك والمعاملة، ولا يعصم عن الخطأ في الحكم والرأي والسلوك، بل كما يصيب: يخطئ... والوظيفة العامة التي يتقلدها الإنسان - أيًا كانت منزلتها - لا تغير من خصائص طبيعته البشرية... وحكومة الإسلام في تطبيق مبادئه ليست إلهية، بل هي بشرية تخضع للنقد، وتقبل الشورى والمطالبة بها، ورأى الإنسان (أو اجتهاده) لا يلتزم به إلا الإنسان صاحب الرأي نفسه، وإمام المسلمين، أو رئيس دولتهم هو - بحكم نظام الإسلام في الخلافة - من أخيرة بينهم: إيماناً بالله، ومعرفة بمبادئ الإسلام، وأكثرهم تجنباً للظلم والاعتداء، وإحفاقاً للحق، وإقراراً للعدل.

" والعلمانية إذن ليس لها مكان في وجود الإنسان مع الإسلام، فإما أن

يوجد الإسلام ولا علمانية، أو توجد العلمانية ولا إسلام. والعلمانية في تصور بعض المسلمين المعاصرين، وفي محاولة التوفيق بينها وبين الإسلام في مجتمع إسلامي.. تعود إلى قصور في تصور الإسلام، ثم إلى رغبة في محاكاة حلول في تفكير الغرب لمشاكل كانت وليدة البيئة الغربية، ونتيجة الصراع فيها حول السلطة والتفرد بالقوة في كل جوانبها في المجتمع الأوربي.^٤

لم يعط الإسلام أحداً - مهما كان مركزه - الوصاية في الفكر على الآخرين، كما كان وضع البابا في المجتمع المسيحي قبل عصر النهضة، كما أنه لم يبرئ أحداً من الخطأ - أو بالتعبير الاصطلاحي: لم يعصم أحداً من الخطأ - بحيث يفرض رأيه على المجتمع، بحجة أنه لا يجوز نقده، لأن النقد لا يوجه إلا لمن يخطئ، وما دام خطؤه مستحيلاً، فنقده جريمة يعاقب عليها من يتجرأ على مخالفته، كما هو وضع البابا بالنسبة للمسيحيين. فإذا انتفت الوصاية الفكرية في الإسلام، فإنه يحل لكل فرد في **ظله** أن يفكر بحرية، ويعبر عن تفكيره دون حجر عليه، ومن غير قيود تفرض على حرية التعبير عن رأيه. وكان لمبدأ انتفاء العصمة عن الإنسان أثر في اتساع حركة النقد، إذ أنه أجاز نقد أى فكر مهما كان مركز صاحبه، فليس هناك من يتمتع بحصانة ضد الآراء المخالفة له، حتى وإن علا شأنه في المناصب الروحية، فتقلد أعلى المناصب الرسمية، أو تربع في مقام من يعتقد العامة في قداسته، لقربه - حسب ما يعتقدون - من صاحب الرسالة نسباً أو علماً، أو تقوى وصلاً.^٥

وبناءً عليه، فلا مكان للعلمانية في المجتمع الإسلامى - أو بتعبير آخر: ماتطالب به العلمانية موجود فيه - لانتفاء الأسباب التي أدت إلى ظهورها؛ إذ

٤ (البهي: العلمانية..... ص ٣.

٥ (راجع مقدمة كتابنا: " الإسلام دين ودنيا ".

لا وجود لقداسة رجال الدين في الإسلام، كما هو الحال في المسيحية، ولا مكان لاحتكار صواب الرأي لأي فئة في المجتمع الإسلامي، كما كان الحال لدى قساوسة ورهبان الكنيسة في المجتمع الأوربي، فأراء العلماء وتصورات المفكرين قابلة للنقد مهما كان منصب صاحبها، بل إن العلماء الأوّل لم يدعوا أن آراءهم هي حقائق مطلقة، فقد قال الشافعي: رأي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب. وقال أبو حنيفة: هذا أحسن ما توصلنا إليه، فمن جاءنا بأفضل منه تبعناه، وبالتالي فالساحة في المجتمع الإسلامي مفتوحة لكل ذي رأي، والبقاء لمن تثبت المعطيات العصرية صلاحيته لحياة الإنسان، وفاعليته في مسار التقدم والازدهار، فلم تقم الحضارة الإسلامية إلا في إطار تعدد الآراء، ولم تنهض الأمة لإسلامية إلا في ظل تلاقح الأفكار والرؤى، وهذه هي فلسفة الإسلام، امكنونة في طيات النصوص الإلهية، مازالت واضحة لكل ذي فكر سليم، وعقل واع. وستظل كذلك إلى يوم القيامة، قابلة للتأويل والتفسير عبر القرون لتلائم العصر، وتلبى احتياجات المجتمعات قاطبة، بدائها ومتحضرها. وسوف تكون صالحة لأي نظام للحياة على الكرة الأرضية، مادام هناك علماء يكشفون مكنونها، ويلقون الضوء على ما فيها من أسرار نصوصها، وتعبيرات أوامرها الإلهية.

يضاف إلى ذلك أن ما تنادى به العلمانية - وتدعو إليه - من مبادئ، قد أقرها الإسلام في المجتمع الإسلامي قبل ظهور العلمانية في المجتمع الأوربي بثلاثة عشر قرناً: فحرية الاعتقاد مبدأ من مبادئ الإسلام الأساسية: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ومبدأ المواطنة نادى به الرسول ﷺ في وثيقة المدينة، وحرية التعبير، والإبداع، واحترام الآخر،...،...، إلخ من معالم الحياة في ظل الإسلام، ومواكبة التطور في المجتمعات الإنسانية طريق مفتوح أمام الفكر

الإسلامي، وذلك بفضل الصياغة العامة لنصوص القرآن الكريم فيما يتعلق بشئون الحياة ونظمها، سواء فيما يتعلق بالفرد، أو يتعلق بضبط النظام في المجتمع، ولذا كان الإسلام صالحاً لكل زمان ومكان، فعلى العلماء أن يستنبطوا من نصوصه العامة ما يلائم حركة المجتمع وما يتفق مع نبض الحياة، وما يتناغم مع مقتضيات العصر، ولا يقفوا جامدين أمام ما توصل إليه العلماء السابقون من تفسير للنصوص، لأن آراءهم كانت انعكاساً لثقافتهم وعصرهم، فلو عاشوا في عصر آخر لاختلفت هذه الآراء، ولتغيرت الأحكام التي استنبطوها من النصوص التزاماً بما اشتهر بين الفقهاء: "حيثما توجد المصلحة فثم شرع الله"، واستنباطاً لمعنى آخر يُفهم من النص على نحو يحقق التناغم مع العصر، مع الالتزام بشرع الله، مع مواكبة التطور في المجتمع الإنساني.^٦

المطلق والنسبي

"المطلق": هو التام والكامل، المتعري من كل قيد، واجب الوجود، المتجاوز الزمان والمكان، ولذا فهو يتسم بالثبات والعالمية. أما "النسبي": فهم ما يُنسب إلى غيره ويتوقف وجوده عليه ولا يتعين إلا مقروناً به، وهو مقيد وناقص ومحدود، مرتبط بالزمان والمكان، ويتلون بهما ويتغير بتغيرهما، ولهذا فالنسبي ليس بعالمي، ولا ينطبق على كل البشر.

والمطلق هو أيضاً المبدأ الواحد والمركز. وفي غياب المطلق تصبح كل الظواهر نسبية متساوية، إذ لا يمكن القول بشأنه: "هذا أفضل من ذلك"، ولذا فإن الحديث عن منظومات "أخلاقية نسبية" هو من لغو الكلام، لأن استخدام هذه المنظومات في التمييز بين الخير والشر، وبين العدل والظلم غير ممكن، لن

(٦) وهذا هو منهجنا في تناول الموضوعات في هذا الكتاب.

تكون كل الأمور نسبية وذاتية، ومن ثم متساوية، بل إن التمييز بين الإنسان والطبيعة (أى بين الإنسان والحيوان) يصبح هو الآخر أمراً مستحيلاً، وهو ما يؤدي بالطبيعة البشرية ككيان مستقل عن حركة الطبيعة - المادة.... والنسبية الكاملة تؤدي إلى العدمية، لأنها تنكر وجود أى تميز أو اختلاف، أو مقدرة على إصدار الأحكام الأخلاقية، أو المعرفة، أو حتى الجمالية، أو على تغيير العالم، أو على إصلاح الذات، أو على تجاوز المعطيات الواقعية الطبيعية - المادية، ولذا فهي تنتهى بإنكار كل شيء: الأخلاق، والميتافيزيقيا، والكيليات والإنسان.^٧

كذلك يمتد حقل الكينونة غير المحدود من الحالة الأبدية للمطلق غير الظاهر إلى الحالات الكثيفة النسبية الدائمة التغير للحياة الظاهرة، تماماً مثلما يمتد البحر من السكون الأبدى في القاع إلى النشاط الصاحب لطبيعته الدائمة التغير على مستوى السطح للأمواج. طرف منه سكون أبدي غير متغير بطبيعته، والطرف الآخر هو النشاط الدائم التغير.

يمثل الجانب النشط الدائم التغير الجانب النسبي للكينونة، في حين يمثل الجانب الدائم السكون لقاع البحر الجانب الأبدى المطلق الذي لا يتغير. هذه هي علاقة الكينونة مع عالم الأشكال والظواهر الذي نعيش فيه. إن كلتا الحالتين: النسبي والمطلق، هما حالتي الكينونة. إن الكينونة هي أبدية لا تتغير في حالتها المطلقة، وهي دائمة التغير بشكل أبدي في حالتها النسبية.

لقد رأينا أن الكينونة هي الحقيقة النهائية للوجود، وهي المكون الأساسي للحقيقة، إنها كلية الوجود، هذا ما يكشف لنا أن الكينونة لها وجهان بطبيعتها

(٧) المسرى: المجلد الثامن / تعريف المفاهيم والمصطلحات الأساسية.

الأساسية: وجه مطلق، والآخر نسبي. مع بقاء الكينونة بشكل دائم في حالة المطلق كلي الوجود، نجدتها أيضاً في النواحي الدائمة التغير في الوجود الظاهري والخلفية النسبية.

إن حقل الحياة بأكمله من الفرد إلى الكون هو ليس سوى التعبير عن الكينونة الأبدية المطلقة غير المتغيرة، وكلية الوجود في النواحي النسبية الدائمة التغير للوجود.^٨

ومن هذا يتبين أن المطلق عنصر أساسي في الوجود بجميع أنواعه: إنسان أو حيوان أو جماد، أو بتعبير آخر: المطلق لازم من لوازم وجود الكائنات، روحية أم مادية. ولذا يصبح من لغو القول ما ينشره أحد المفكرين في الصحافة من هجوم على الاتجاه الديني، مدعياً أنه يؤمن بالمطلق، ويرفض النسبي، وهذا تصور ينبئ عن عدم فهم لطبيعة الدين، فهو - شأنه في ذلك شأن الكائنات كلها - يشتمل على المطلق والنسبي، فتعميم المطلق على كل المسائل الدينية غير صحيح، لأن المطلق في الدين الإسلامي ينحصر في نص القرآن الكريم فقط، أما تفسيره فهو من قبيل النسبي، لأن العلماء اختلفوا - وما زالوا يختلفون - في تفسيره، الأمر الذي جعل الأحكام الشرعية متعددة في المسألة الواحدة حسب رؤية الفقيه، وطبقاً لمتطلبات عصره وبيئته، وأشهر مثل على ذلك تغيير الشافعي لآرائه في بعض الأحكام التي توصل إليها في العراق، عندما جاء إلى مصر لاختلاف البيئة، ألا يندرج ذلك تحت مصطلح النسبية في الأحكام!

وليست النسبية قاصرة على المسائل الفقهية، بل تشمل مفهوم كل النصوص القرآنية، ماعداً قطعي الدلالة منه، وهو قليل جداً، فالغالب الأعم من نصوص

٨ (شبكة المعلومات الدولية: موقع الإشراف.

القرآن الكريم يحتمل أكثر من وجه، كما سنبينه في القضايا التي سنعرضها في هذا الكتاب، بل إن النصوص القرآنية تحمل معانٍ لاحصر لها، أكثر مما بيناه، سوف يكشف أسرارها العلماء عبر العصور المقبلة، ليثبتوا للقاصي والداني صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان، وإمكانية تطبيقه لنظم الحياة المختلفة على سطح الكرة الأرضية مهما اختلفت درجات حضارتها، وتنوعت أساليب تفكيرها، وتباعدت مفاهيم حياتها.

المواطنة

المواطنة: صفة دالة على المطاوعة والمشاركة، وهي مشتقة من اسم الفاعل: واطن، وهو من الفعل الرباعي: واطن، والثلاثي منه: وطن، أى قطن وأمن في مكان ما على بقعة من الأرض: البيت أو القرية أو المدينة أو الدولة، فكل منها وطن. ومفهوم المواطنة المعاصر هو:

الانتماء إلى مجتمع واحد يضمه بشكل عام رابط اجتماعي موحد في دولة معينة. وتبعاً لنظرية "جان جاك روسو": "العقد الاجتماعي"، فالمواطن له حقوق إنسانية، يجب أن تقدم إليه، وعليه في نفس الوقت مجموعة من المسؤوليات الاجتماعية التي يلزم عليه تأديتها.

وعليه فالمقصود من هذا المصطلح: العضوية الكاملة والمتساوية في المجتمع بما يترتب عليها من حقوق وواجبات، وهو ما يعنى أن كافة أبناء الشعب الذين يعيشون فوق تراب الوطن سواسية، بدون أدنى تمييز قائم على أى معايير تحكومية، مثل: الدين أو الجنس أو اللون أو المستوى الاقتصادي أو الانتماء السياسي والموقف الفكرى، ويرتب التمتع بالمواطنة سلسلة من الحقوق والواجبات، ومن أهمها: المساواة، والحرية، والمشاركة، والمسؤولية الاجتماعية.

هل يعترف الإسلام بهذا المصطلح بهذا المعنى؟

ينكر كثير من المفكرين المعاصرين اعتراف الإسلام بالمواطنة، ظناً منهم - عن جهل بتاريخ الإسلام، أو تعصباً لأيديولوجيات تنفر من الحكم الإسلامى - أن الدولة الإسلامية لا تعترف بحقوق الأقليات التي تدين بدين آخر غير الإسلام، فهي لا تقر لهم بحقوق، ولا تسمح لهم بحريات في المجال الديني والاجتماعي، إلا ما تسمح الأكثرية لهم به في حدود ضيقة جداً، فهم يعيشون على هامش الحياة في المجتمع، وعليه فالدولة الحديثة التي نشأت في أوروبا هي التي سمحت لكل الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم وعقائدهم أن يعيشوا في ظل الدولة متساويين.

وهذا الفهم ليس صحيحاً، بل إنه يتجاهل التاريخ الإسلامى الذى سبق الدول الحديثة في الاعتراف بحقوق الآخر، وبالتساوى بين كل الناس مهما اختلفت عقيدتهم في وقت - وهو القرن السابع الميلادى - كان التعايش بين أصحاب الأديان والعقائد المختلفة في مجتمع واحد يكاد يكون مستحيلاً؛ فلم تقبل الأغلبية الدينية الاعتراف بالآخر، فضلاً عن السماح له بممارسة طقوسه وتطبيق شعائره في حياته الاجتماعية فعاشت الأقلية الدينية - في كثير من المجتمعات الإنسانية - مضطهدة، لم نهنأ بحياة كريمة، ولم تأخذ حقها في الوجود، اللهم إلا ما يوجد به الآخر عليها، حتى جاء الإسلام فأعلنها صريحة مدوية على لسان نبيه ﷺ في حجة الوداع: " أيها الناس كلكم لآدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى.... "، كذلك عندما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة واستقر بها، رأى أن سكانها يتألفون من ثلاث قطاعات اجتماعية: المسلمين، واليهود، والمشركين، وكانت التقاليد العربية قائمة على رابطة الدم والقرباة، لكن الوضع الجديد غير هذه العلاقة،

فأصبحت: مسلمين (مهاجرون وأنصار)، ويهود، ومشركون عرب، فرأى الرسول ﷺ بثاقب فكره وإلهام من الله أن يرسى قواعد جديدة تنظم العلاقة بين المسلمين - وهم من قبائل متعددة -، ومشركون عرب - وهم أيضاً من قبائل مختلفة - ويهود - ولا تضمهم قبيلة واحدة - بل كانوا بطون وعشائر متعددة.

صاغ الرسول ﷺ قواعد التعامل بين هذه المجموعات البشرية - المختلفة في دينها، والمتعددة في أسس الترابط بينها - في وثيقة، عُرفت باسم: " وثيقة المدينة"، وأطلق عليها العلماء والمفكرون في العصور اللاحقة: " وثيقة السلام"، لأنها أرست مبادئ السلام بين القبائل العربية المتحاربة، وبينهم وبين اليهود الذين كان بينهم وبين العرب المجاورين لهم ضغائن وإحن، فوحدت هؤلاء جميعاً في جبهة واحدة، يتناصحون فيما بينهم، ويتآزرون على من يعتدى عليهم، فهم يد واحدة على من يهدد بناءهم الاجتماعي، ووحدتهم السياسية. جاء في هذه الوثيقة أنها كتاب من محمد النبي (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب (أى سكان المدينة من عرب ويهود) ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم:

- أنهم أمة واحدة،
- وأنهم يد واحدة على من ابتغى أو ظلم، أو ارتكب إثماً أو فساداً، فهم عليه جميعاً، حتى ولو كان وكلاً أحدهم.
- وأنه لا يحل لأحد أقر بما في هذه الوثيقة أن ينصر بجرماً،
- وأنهم جميعاً يحاربون من حارب أهل هذه الصحيفة،
- وأنهم يد واحدة على من هاجم يثرب،
- وأن هذه الوثيقة لا تحول دون التصدي للظالم مهما كانت هويته،

- وأن من خرج من المدينة فهو آمن، ومن بقى فيها فهو آمن إلا من ظلم أو ارتكب إثماً.

إن هذه الوثيقة مثال واضح للتعایش السلمی بین الأعراق والأجناس المختلفة، ونموذج فريد للقوانين الدولية التي تدعو للمواطنة في الدول المختلفة، وصيغة مثلى للتفاهم بين الشعوب على مستوى الإنسانية، ومما يزيد بها إجلالاً وإكباراً أنها صدرت ونُفِذت في بداية القرن السابع الميلادي، فكانت فريدة في مبادئها، عظيمة في قواعدها التي وُضِعَت للتعامل بين الناس على أساس المساواة بينهم جميعاً رغم اختلاف أجناسهم وأعراقهم، و تعدد عقائدهم وأديانهم.

أرست هذه الوثيقة مبادئ تأخر ظهورها في الغرب قرونًا، فلا يحق لأحد أن يدعى أن الإسلام لا يعترف بالمواطنة، أو أن الدولة الحديثة بمساواتها بين المواطنين، مسلمين وغير مسلمين تتناقض مع الحكم الإسلامي، أو أن أسس تعامل الحكومة الإسلامية مع رعاياها يختلف عن قواعد الحكم في العالم المعاصر، فَتَحَتْ ظلها يتمتع كل مواطن بالحرية في عقيدته، وكل مناحي حياته الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي يتفق عليها المواطنون، وتلي قواعد وتعاليم كل دين، فالاختلاف فقط في التعبير اللغوي، فوثيقة المدينة يمكن أن يطلق عليها: "العقد الاجتماعي" كما عرّفها "جان جاك روسو"، ويمكن أن تعرف بأنها مبادئ دستور لدولة مدنية، فالمضمون واحد، وإنما الاختلاف في التعبير حسب تطور اللغة وظروف العصر.